تفسير سورةُ فصلت
من آية (1) إلى آية (8)
اللقاء الأول

مقدمات السورة

أسماء السورة: مِمَّا سُمِّيَت به هذه السُّورةُ: سُورةُ (فُصِّلَت)، و(حم السَّجْدةِ).

قال ابن عاشور: اشتَهَرت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لِوُقوعِ كَلِمةِ فُصِّلَتْ في أوَّلِها؛ فعُرِفَت بها تمييزًا لها مِن بينِ السُّوَرِ المفتَتَحةِ بحروفِ (حم). و(حم السَّجْدةِ) لأنَّها تَمَيَّزَتْ عن السُّورِ المفتَتَحةِ بحُروفِ «حم»؛ بأنَّ فيها سَجدةً مِن سُجودِ القرآنِ).

الحواميم وتقصد بها بالسور القرآنية التي تبتدأ بلفظ حم، وعددها 7 سور مكية وهي سورة غافر، سورة فصلت، سورة الشورى، سورة الزخرف، سورة الدّخان، سورة الجاثية، سورة الأحقاف.

فضل الحواميم:

– عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن لكل شيء لبابًا، ولباب القرآن "الحواميم".

– قال بن مسعود رضي الله عنه: إذا وقعت في الحواميم، فقد وقعت في روضات أتأنق فيهن.

الهدف الرئيسي من الحواميم:

ركزت هذه السور على انتقال أمر الدعوة إلى أمة محمد بعد ان كانت في بني إسرائيل مع التأكيد على عظم المسؤولية وما تحمله من واجبات ومحاذير والتعرض إلى ذلك من خلال بعض التوصيات التي جاءت في كل سورة منها والتي تركزت جميعها في ضرورة التخلي عن الكبر والتمسك بالجماعة والشورى بيننا حتى ننعم بالحياة الدنيا والآخرة وتصبح أمة محمد خلفاء الله في الأرض.

وسميت (فصلت) لأن الله تعالى فصل فيها الآيات، ووضح فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته وخلقه لهذا الكون البديع، الذي ينطق بجلال الله، وعظيم سلطانه.

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

هذه السُّورةُ اشتَمَلت على أحَدِ مَواضِعِ سُجودِ التِّلاوةِ.

بيان المكي والمدني:

سورةُ فُصِّلَت مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ.

مقاصد السورة:

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وأنَّ هذا القُرآنَ مِن عِندِه سُبحانَه تعالى.

موضوعات السورة:

مِن أهَمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:

1-مدْحُ القُرآنِ، وبيانُ شَرَفِه.

2-بيانُ مَوقِفُ الكُفَّارِ مِن القرآنِ.

3-ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ الله تعالى؛ كتَخليقِ الأرضِ، وما جُعِل فيها مِن جِبالٍ، وما قُدِّر فيها مِن أقواتٍ، وتَخليقِ السَّمواتِ السَّبعِ، وتَزيينِ السَّماءِ الدُّنيا منها بالنُّجومِ.

4-إنذارُ المشرِكينَ المعرِضينَ عن سَماعِ القُرآنِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المكَذِّبةِ، وذِكرُ ما حَلَّ بعادٍ وثمودَ مِن العُقوبةِ في الدُّنيا.

5-ذِكرُ بَعضِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، وبَيانُ بَعضِ أحوالِ الكُفَّارِ السَّيِّئةِ في هذا اليَومِ؛ كشَهادةِ جَوارِحِهم عليهم.

5-بيانُ حالِ المؤمِنينَ وحُسنِ مَصيرِهم، وفَضلُ الدَّعوةِ إلى اللهِ والدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ، والأمرُ بالاستِعاذةِ باللهِ تعالى مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ.

6-ذِكرُ عدَدٍ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على إحياءِ الموتى.

7-تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

8-إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وإبطالُ مَطاعِنِ المشرِكينَ فيه.

9-بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّ مَرَدَّ عِلمِ قيامِ السَّاعةِ إليه.

10-ذِكرُ طَبيعةِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

11-خُتِمَت السُّورةُ بأنَّ حِكمةَ اللهِ اقتَضَت إطْلاعَ النَّاسِ في كُلِّ وَقتٍ على بَعضٍ مِن آياتِه -سُبحانَه- في الآفاقِ وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبَيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿حم﴾ ﴿1﴾

(حم) هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها. موسوعة التفسير

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إنها إشارة إلى إعجاز القرآن العظيم بأنه لم يأت بجديد في الحروف التي جاء بها بل هو جاء بالحروف التي تركبون منها كلامكم ومع ذلك أعجزكم؛ ولهذا تجد السور المبدوءة بهذه الحروف الهجائية يأتي من بعدها ذكر القرآن أو شيء لا يكون إلا بوحي.

📂كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان، كليم الله موسى-عليه السلام- كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبُعِث بآيات بهرت الأبصار، وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل، الذي لا يمكن صدوره إلا عمّن أيّده الله وأجرى الأمر الخارق على يديه، مثل العصا واليد...وغير ذلك تصديقا له، فأسلموا ففي أول النهار سحرة فجرة كفرة وفي وسط النهار شهداء كرام برزة.

📂وهكذا عيسى بن مريم-عليه السلام-، بُعث في زمن الأطباء والحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، مثل إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالا من الأعمى؟ والأبرص؟ والمجذوم؟ وَمن به مرض مزمن؟ وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟ هذا مما يدل على صدقه، وعلى قدرة من أرسله.

📂وهكذا نبينا محمد -ﷺ-، بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله -عز وجل- عليه القرآن العظيم، الذي لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، فلفظه معجز، تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون على ذلك، فلم يفعلوا ولن يفعلوا...)

📄قال ابن عاشور: افتُتِحتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ بالحَرفَيْنِ المقطَّعَيْنِ مِن حُروفِ الهِجاءِ حم؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَيِ الهِجاءِ رَمزٌ إلى عَجزِهم عن مُعارَضَتِه بعدَ أنْ تَحَدَّاهم، لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ به.

📂فائدة افتتاح بعض السّور بالحروف المقطّعة:

❶إثارة انتباه ❷اقامة الحجة على من نزل عليهم القرآن❸التحدي.

﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿2﴾

(تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أي: هذا القُرآنُ مُنزَّلٌ على مُحَمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الَّذي وَسِعَتْ رَحمتُه كُلَّ شَيءٍ؛ ومِن رَحمتِه بعِبادِه إنزالُ القُرآنِ المشتَمِلِ على العِلمِ والهُدى، والنُّورِ والشِّفاءِ، والرَّحمةِ والخَيرِ والسَّعادةِ. موسوعة التفسير

📝"إن القرآن الكريم هو خيرُ عملٍ صالحٍ تُعمر به الأَوقات، وخيرُ صُحبةٍ تُنال بها جزيل الحسنات، وخيرُ دليلٍ إلىٰ تبصرة الحقّ إذا ادلهمت الظلمات، وخيرُ شارحٍ للصدور إذا ضاقت بها الكُربات".

📄قال ابن تيمية: إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعالى؛ ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنزولِ الأشياءِ مِن عِندِه سبحانَه.

📝ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن المنزل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة الدالة على صدق محمد -ﷺ-، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم -ﷺ-.

📝وإيثارُ الصِّفَتَيْنِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ على غَيرِهما مِنَ الصِّفاتِ العَلِيَّةِ؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ هذا التَّنزيلَ رَحمةٌ مِنَ اللهِ بعِبادِه؛ لِيُخرِجَهم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ. الدرر السنية

❍يعد القرآن الكريم رحمة للعالمين لأنه يهدي إلى الصراط المستقيم، يبين للعباد الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويهدي النفوس، ويلزم الإنسان بالطاعة والعبادة، ويبعده عن المعاصي والذنوب.

قال ابن القيم: فيه معنًى حَسَنٌ، وهو أنَّ الرَّحمنَ دالٌّ على الصِّفةِ القائِمةِ به سُبحانَه، والرَّحيمَ دالٌّ على تعَلُّقِها بالمرحومِ؛ فكان الأوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعلِ؛ فالأوَّلُ دالٌّ أنَّ الرَّحمةَ صِفتُه، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يَرحَمُ خَلْقَه برَحمتِه. وقيل: فائِدةُ الجَمعِ بيْنَ الصِّفتَينِ «الرَّحمنِ والرَّحيمِ»: الإنباءُ عن رَحمةٍ عاجِلةٍ وآجِلةٍ، وخاصَّةٍ وعامَّةٍ.

❍(الرحمن) أوسع من (الرحيم) فرحمته تتسع لجميع الخلائق في الدنيا، ورحمته في الآخرة للمؤمنين ويُحجب عنها الكافرون.

وتكرر ذكر الرحمن في القرآن في سبعة وخمسين موضعا، يقول ابن القيم: "وإذا أراد الله بأهل الأرض خيرا، نشر عليهم أثرا من آثار اسمه الرحمن، فعمَّر به البلاد، وأحيا به العباد، وإن أراد بهم شراً أمسك عنهم ذلك الأثر، فحل بهم من البلاء بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه الرحمن".

ومن رحمته -سبحانه-: أنه أنزل رحمة إلى عباده؛ ليتراحموا بينهم؛ فيكمِّل بعضهم بعضاً، ويحتاج بعضهم إلى بعض، ويعطف غنيهم على فقيرهم، وقويُّهم على ضعيفهم، قال-ﷺ-: " إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ منها رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ علَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يومَ القِيَامَةِ"(صحيح مسلم).

فتأملوا في كل شيء حولنا، ابتداء من أنفسنا وانتهاء بما تقع عليه أبصرنا؛ نجد أن العالم كله ممتلئ برحمة الله، فلو تفكرنا في هذا الكون وجدنا مظاهر وآثار رحمة الله أمامنا، وصدق الله إذ يقول: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف: 156].

وَمِنْ مَظَاهِرِ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تعالى أَنْ جَعَلَ كِتَابَهُ الكَرِيمَ كُلَّهُ رَحْمَةً، وَهِدَايَةً، وَنُورًا، وَشِفَاءً، وضع أحكامًا وشرائع لضبط معاملات الناس في جميع أمور حياتهم؛ إذ إنّ السير على منهج الشريعة وتطبيق أحكام الله سبيلٌ لنيل منافع الناس في الدنيا والابتعاد عما يضرهم، من أعظم الرحمات أن جعل لنا سبحانه منهج ودليل ولم يتركنا هملاً، بل بين لنا كل ما فيه خير لنقبل عليه وكل ما فيه شر لنبتعد عنه، فيظفر المؤمن بخير الدنيا والآخرة.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿3﴾

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أي: هذا كِتابٌ بيَّن اللهُ آياتِه بَيانًا تامًّا واضِحًا حالَ كونِه قرآنًا عربيًّا، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَرَبيَّ، فيَتمَكَّنونَ مِن فَهمِه وتدَبُّرِه والانتِفاعِ ببَيانِه. موسوعة التفسير

كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُيِّنَت معانيه ووضحت أحكامه بطريقة القصص والمواعظ والحكم والأمثال، في غاية البيان.

قال ابن عطية: (فُصِّلَتْ معناه: بُيِّنَت آياتُه، أي: فُسِّرَت معانيه، ففصل بيْنَ حلالِه وحرامِه، وزَجْرِه وأمْرِه، ووَعْدِه ووَعيدِه. وقيل: فُصِّلَتْ في التَّنزيلِ، أي: نُزِّل نجومًا، لم يُنَزَّلْ مَرَّةً واحِدةً).

قال ابن عثيمين: أنَّ القُرآنَ نَزَلَ باللُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ ففيه مَنقَبةٌ للعَرَبِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ نَزَلَ بلُغتِهم، وفيه إحياءٌ للُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيبقَى إلى أنْ يأذَنَ اللهُ بخَرابِ العالَمِ، ومِن المعلومِ أنَّه إذا بَقِيَ باللِّسانِ العربيِّ فسوف تَحيا اللُّغةُ العَرَبيَّةُ وتبقَى، وهذا مِن آثارِ القُرآنِ الكريمِ.

وقال البقاعي: (يَعْلَمُونَ أي: فيهم قابليَّةُ العِلمِ، وتجَدُّدُ الفَهمِ، بما فيهم مِن سَلامةِ الطَّبعِ، وسَلاسةِ الانقيادِ لِبَراهينِ العَقلِ والسَّمعِ، وحِدَّةِ الأذهانِ، وفَصاحةِ اللِّسانِ، وصِحَّةِ الأفكارِ، وبُعْدِ الأغوارِ، وفي هذا تَبكيتٌ لهم في كَونِهم لا ينظرونَ مَحاسِنَه فيَهتَدوا بها، كما يَعتَنونَ بالنَّظَرِ في القَصائِدِ).

قوله: قُرْآنًا عَرَبِيًّا القُرآنُ: الكَلامُ المقروءُ المتلُوُّ، وكَونُه قُرآنًا مِن صِفاتِ كَمالِه، وهو أنَّه سَهلُ الحِفظِ، سَهلُ التِّلاوةِ؛ ففيه امتِنانٌ بسُهولةِ قِراءَتِه وفَهمِه، كما قال تَعالى: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ [القمر: 17]

قال ابن تيمية رحمه الله: (... اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فَهْم الكتاب والسنة فرض، ولا يُفْهم إلا بفَهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).

قال الإمام الشافعي: (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افتُرض عليه من التكبير، وأُمر به من التسبيح والتشهد، وغير ذلك).

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿4﴾

(بَشِيرًا وَنَذِيرًا) أي: يُبَشِّرُ القُرآنُ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ، ويُنذِرُ مَنْ كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ بالشَّرِّ والنِّقمةِ. موسوعة التفسير

(فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) أي: فأعرَضَ أكثَرُ كفَّارِ قريشٍ عن سَماعِ القُرآنِ وتدَبُّرِه واتِّباعِه، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ. موسوعة التفسير

نزل القرآن مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم، فأعرض أكثر المشركين عن تدبر آياته مع أنه نزل بلغتهم فهم لا يسمعون سماع تفكر وتأمل.

قال السَّعدي: (أعرَضَ أكثَرُ الخَلقِ عنه إعراضَ المستَكبِرينَ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ له سَماعَ قَبولٍ وإجابةٍ، وإن كانوا قد سَمِعوه سماعًا تقومُ عليهم به الحُجَّةُ الشَّرعيَّةُ).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ [الأحقاف: 3].

قال الأصفهاني: البشارة تعني: الخبر الذي يفرح ويسر، ويدخل الابتهاج على النفس، أما تعريف النذارة، فهي إخبار فيه تخويف.

وتقديم البشارة على النذارة أو العكس يكون حسب الموقف نفسه: زمانًا، ومكانًا، وموضوعًا، وحالة، فالغالب الأعم أن تكون البشارة مقدمة على النذارة من باب تقديم الرحمة على الغضب، ومن

باب ما جُبلت عليه النفوس من حب ما يفرح ويسر، وكراهية ما فيه تخويف وإنذار، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: 45]، وهنا قدَّم الله تعالى البشارة على النذارة، وإن الله تعالى قدم التبشير على الإنذار؛ تكريمًا للمؤمنين المبشرين، وإشعارًا بأن الأصل في رسالته -ﷺ- التبشير، فقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين.

"القرآن يأتي بك سريعًا، مهما تخبّطت وتقلّبت، مهما طالت المسافة التي مشيتها مبتعدًا، مهما كان حجم التفريط الذي أصابك، مهما استطال فتورك، مهما كانت الأسباب التي تحول دون اقترابك، مهما كنت قانطًا، تجد القرآن يطوي بك الزمان والمكان ويضعك على أعتاب باب الله سريعا".

قال الرازي: يدُلُّ على أنَّ المهدِيَّ مَن هداه اللهُ، وأنَّ الضَّالَّ مَن أضلَّه اللهُ، وتقريرُه: أنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ للقُرآنِ في الآياتِ السَّابِقةِ تُوجِبُ قُوَّةَ الاهتِمامِ بمَعرفتِه، والوُقوفَ على معانيه؛ ❁فكَونُه نازِلًا مِن عندِ الإلهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يدُلُّ على اشتِمالِه على أفضَلِ المنافِعِ، وأجَلِّ المطالِبِ، ❁وكَونُه قُرآنًا عَربيًّا مُفَصَّلًا يدُلُّ على أنَّه في غايةِ الكَشفِ والبَيانِ، ❁وكَونُه بَشيرًا ونَذيرًا يدُلُّ على أنَّ الاحتياجَ إلى فَهمِ ما فيه مِن أهَمِّ المهِمَّاتِ؛ لأنَّ سَعيَ الإنسانِ في مَعرفةِ ما يُوصِلُه إلى الثَّوابِ أو إلى العِقابِ مِن أهَمِّ المهِمَّاتِ، وقد حَصَلتْ هذه الموجِباتُ الثَّلاثةُ في تأكيدِ الرَّغبةِ في فَهمِ القُرآنِ، وفي شِدَّةِ الميلِ إلى الإحاطةِ به، ثمَّ مع ذلك فقد أعرَضوا عنه، ولم يَلتَفِتوا إليه، ونَبَذوه وراءَ ظُهورِهم! وذلك يدُلُّ على أنَّه لا مَهدِيَّ إلَّا مَن هداه اللهُ، ولا ضالَّ إلَّا مَن أضَلَّه اللهُ.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾﴿5﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَفَ القُرآنَ بأنَّهم أعرَضوا عنه ولا يَسمَعونَه؛ بيَّنَ أنَّهم صَرَّحوا بهذه النَّفرةِ والمباعَدةِ

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) أي: وقال المعرِضونَ عن القُرآنِ: قُلوبُنا الَّتي نَعقِلُ بها ونَفهمُ في أَغطِيةٍ مُحيطةٍ بها، تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ ما تَدْعونا إليه، يا مُحَمَّدُ. موسوعة التفسير

(وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ) أي: وفي آذانِنا ثِقْلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ؛ فنَحن لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وهو الثِّقْلُ، لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه؛ استِثقالًا لِما يَدعو إليه، وكراهةً له).

(وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) أي: ومِن بَيْنِنا وبَينِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك؛ فنحن لا نراك. موسوعة التفسير

وقال السعدي: (القَصدُ مِن ذلك: أنَّهم أظهَروا الإعراضَ عنه مِن كُلِّ وَجهٍ، وأظهَروا بُغْضَه، والرِّضا بما هم عليه).

(فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ) أي: فاعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بدينِك، إنَّنا عامِلونَ بدِينِنا الَّذي رَضِيناه لأنفُسِنا، فلن نتَّبِعَك. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: اللهَ تعالى إنَّما جَعَل على قُلوبِهم الأكِنَّةَ، وطَبَع عليها، وخَتَم عليها، وجَعَل الوَقْرَ في آذانِهم، ونحوَ ذلك مِن الموانِعِ مِن الهُدى؛ بسَبَبِ أنَّهم بادَروا إلى الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ طائِعينَ مُختارينَ، فجزاهم اللهُ على ذلك الذَّنْبِ الأعظَمِ طَمْسَ البَصيرةِ، والعَمى عن الهُدى جزاءً وِفاقًا؛ فالأكِنَّةُ والوَقرُ والحِجابُ المذكورةُ إنَّما جعَلَها اللهُ عليهم مُجازاةً لكُفرِهم الأوَّلِ، ومِن جَزاءِ السَّيِّئةِ تَمادي صاحِبِها في الضَّلالِ، ولله الحِكمةُ البالغةُ في ذلك.

الإعراض عن الله تعالى هو أصل كل بلاء، وأساس كل شقاء، الضلال يمر من بريده، والغواية تأتي عبر طريقه، هو ديدن الكافرين، وخلق من أخلاق المنافقين، إذا عشعش في القلب أفسد على العبد دنياه، وأوبق عليه أُخراه.

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الأعراف: 146]

❁والإعراض عن الله تعالى، يكون بالبعد عن دين الله، أو بالاعتراض على أحكام الإسلام، أو إعراض عن هدايات القرآن، والصدود عن الناصحين الواعظين بالقرآن.

❁إننا لو تأملنا آيات الذكر الحكيم لوجدناها مليئة بالآيات المحذرة من الإعراض عن الله تعالى وعن دينه، وعن الصدود عن سبيله، وعن الاعتراض على شريعته.

❁فرفع العافية، وإبدال النعم نقماً عقوبات معجلة لمن أعرض عن ذكر ربه، ونسي ما قدمت يداه.

❁فهل أصاب قوم سبأ ما أصابهم بعد أن كانوا في آية من النعيم، إلا بعد إعراضهم وبعدهم (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) [سبأ:16]

❁هذه العقوبات الإلهية على أهل الإعراض ليست شرطاً أن تكون حسية كالصواعق والقصف، والمسخ والقذف، بل إنَّ عقوبات الملك الجبار على أهل الإدبار قد تكون معنوية، أن يطمس الله على قلوبهم فلا تهتدي لحق، ولا ينفعها ذكر (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) [الأعراف:179]، فالقلوب تنبض وتجري فيها الدماء، ولكنها قلوب قد علاها الرَّان، حال الله بينهم وبين قلوبهم بما كانوا يكسبون، يقول الله سبحانه مبيناً حال قلوب أهل الإعراض، وعقوبته بهم: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) [الكهف:57].

❁المعرضون عن الله تعالى يجتمع عليهم الشقاء والحسرة والبلاء في دنياهم قبل أُخرهم، فهل شقاء أعظم وأشد، من إعراض الله عن العبد، فيكله إلى نفسه الأمارة بالسوء، فَتُزَيِّنُ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، فَيظُنُّهُ حَسَنًا وَهُوَ سَيِّئٌ، فَيَزْدَادُ ضَلالاً وَإِعْرَاضًا، وَفِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الَّذِي مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ -ﷺ-وَهُوَ يُذَكِّرُ النَّاسَ، فَأَعْرَضَ عَنِ التَّذْكِيرِ، وَوَلَّى مُدْبِرًا، قَالَ النَّبِيُّ -ﷺ-فِيهِ: "وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ" رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

كم من أقوام أعرضوا عن شريعة الله فكانوا بها من الجاهلين، فأصبحت أوامر الدين وتشريعاته غريبة عليهم، فجرّهم ذلك إلى الطعن في الدين، والاستهزاء بالشرع!!

كم من أُناس أعرضوا عن دين الله وتعلم الشرع والعقيدة، فقادهم ذلك إلى الإلحاد في أسماء الله وصفاته، والتهكم بعقيدة أهل السنة في هذا الباب!!

كم من أقوام أعرضوا عن علم الشريعة ونور الوحيين، وخلت قراءاتهم وكتاباتهم منها، وتعلقوا وفتنوا بأقوال فلاسفة هالكين، فإذا استشهدوا فبهم، وإذا استدلوا فبكلامهم، فقادهم ذلك إلى انحراف في المفاهيم، وخلل في مسلمات الدين!!

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾﴿6﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: أنَّه لَمَّا أخبَروا بإعراضِهم، وعَلَّلوا بعَدَمِ فَهْمِهم بما يَدعو إليه؛ أمَرَ الله سُبحانَه نبيَّه بجَوابٍ يُبَيِّنُ أنَّهم على مَحضِ العِنادِ

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أنا مِثلُكم في الجِنسِ والهَيئةِ، والصُّورةِ والصِّفاتِ البَشَريَّةِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: هذه صِفتي ووظيفتي، أنِّي بشرٌ مِثلُكم، ليس بيدي مِن الأمرِ شَيءٌ، ولا عندي ما تَستعجِلونَ به، وإنَّما فضَّلني الله عليكم وميَّزني وخصَّني بالوحيِ الَّذي أوحاه إليَّ، وأمَرني باتِّباعِه، ودعوَتِكم إليه.

قال ابن عثيمين: فيه الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خُلِق مِن نورٍ، وأنَّه لا يكونُ له ظِلٌّ إذا مشَى في الشَّمسِ! وجْهُ ذلك: تحقيقُ البشريَّةِ بالمماثَلةِ؛ قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، فأيُّ أحاديثَ تأتي بمثلِ هذه الأمورِ الَّتي تُوجِبُ إخراجَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن نطاقِ البشريَّةِ فإنَّها موضوعةٌ مكذوبةٌ؛ لأنَّه بَشَرٌ مِثلُنا.

(يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أي: يُوحَى إلَيَّ أنَّ مَعبودَكم مَعبودٌ واحِدٌ لا تَصلُحُ العبادةُ إلَّا له وَحْدَه سُبحانَه لا شَريكَ له. موسوعة التفسير

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) أي: فاسلُكوا الصِّراطَ المستقيمَ الموصِلَ إلى الله، مُتوَجِّهينَ إليه بإخلاصِ العبادةِ له، وسَلُوه سَتْرَ ذُنوبِكم، والتَّجاوُزَ عن مُؤاخَذَتِكم بها. موسوعة التفسير

(وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ) أي: وهَلاكٌ وعَذابٌ شديدٌ للَّذين يَجعَلونَ لله شَريكًا في عِبادتِه. موسوعة التفسير

قَولُ الله تعالى: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ قال ابن عثيمين: فيه تنبيهٌ على الإخلاصِ، وأنَّ العامِلَ يَنبغي له أن يجعَلَ مَقصودَه وغايتَه الَّتي يَعمَلُ لأجْلِها الوُصولَ إلى اللهِ تعالى، وإلى دارِ كَرامتِه؛ فبذلك يكونُ عَمَلُه خالِصًا صالِحًا نافِعًا، وبفَواتِه يَكونُ عَمَلُه باطِلًا، قال السعدي: فالآيةُ دلَّت على وُجوبِ الإخلاصِ للهِ، والاستِقامةِ على دينِه؛ فـ «استقيموا» هذا العَمَلُ، و «إليه» هذا الإخلاصُ.

❍والاستقامة استجابة لأمر الله وأمر رسوله -ﷺ-؛ قال الله تعالى لنبيه-ﷺ-: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [هود:112]

❍الاستقامة هي لزوم الجادَّة وعدم السير يمنة ويسرة مع تشعبات الطريق ومع المغريات والشهوات والفتن.

❍الاستقامة هي الثبات على دين الله، وعدم السير وراء كلِّ ناعق، واتباع الحقِّ لا زُخرف الباطل.

❍الاستقامة هي التزام ما يستطيع أن يأتي به الإنسان من طاعات، والبعد عن المعاصي كلها، قال -ﷺ-: (ما نَهَيْتُكُمْ عنْه فَاجْتَنِبُوهُ، وَما أَمَرْتُكُمْ به فَافْعَلُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ...)

❍الاستقامة تقتضي أن تكون أحوالك كلها مع الله، خوفاً، وخشية، وذكراً، وعدم أمنٍ لمكره.

❍الاستقامة تعني إذا عُرِضتْ عليك أي فتنة أو شهوة أن تعرض عنها متذكراً لربك وعظيم عقابه وجزيل ثوابه.

❍الاستقامة أن تمنع أذاك عن الآخرين، وأن تعطيَ لكل ذي حقٍّ حقَّه، أن تُؤدِّيَ الحقوق تمامًا، لا إفراط ولا تفريط.

❍الاستقامة تعني أن تنقاد للحق مسلِّماً مستسلماً راضياً بل وطالباً لتنفيذ حكم الله فيك أو في أهلك وقرابتك وعشيرتك.

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي -رضي الله عنه- قال: - قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسْلامِ قَوْلًا لا أسْأَلُ عنْه أحَدًا بَعْدَكَ، قالَ: قُلْ: آمَنْتُ باللَّهِ، ثم اسْتَقِمْ"(رواه مسلم).

فالمؤمن مطالب بالاستقامة الدائمة، ولذلك يسألها ربه في كل ركعة من صلاته: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) [الفاتحة:6]، ولما كان من طبيعة الإنسان أنه قد يقصر كما قال السعدي: لَمَّا كان العَبدُ - ولو حَرَص على الاستِقامةِ- لا بُدَّ أن يَحصُلَ منه خَلَلٌ بتَقصيرٍ بمأمورٍ، أو ارتِكابِ مَنهيٍّ؛ أمَرَه بدواءِ ذلك بالاستِغفارِ المتضَمِّنِ للتَّوبةِ، قال ابن رجب: فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن تقصيرٍ في الاستِقامةِ المأمورِ بها، فيُجبَرُ ذلك بالاستغفارِ المقتَضي للتَّوبةِ، والرُّجوعِ إلى الاستِقامةِ.

أن يَعمَلَ ثمَّ يَستَغفِرَ بعدَه؛ لأجْلِ الخَوفِ مِن وُقوعِ التَّقصيرِ في العَمَلِ الَّذي أتى به، كما قال -ﷺ-: ((وإنَّه لَيُغانُ على قَلبي، وإنِّي لأستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ واللَّيلةِ مئةَ مرَّةٍ)).

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾﴿7﴾

(الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) أي: الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم ولا يُطَهِّرونَها بالإيمانِ باللهِ، وطاعتِه وَحْدَه، والعملِ الصَّالحِ، والبُعدِ عن الإشراكِ باللهِ ومَعصيتِه. موسوعة التفسير

قال السعدي، فقال: (لم يُزَكُّوها بتوحيدِ رَبِّهم والإخلاصِ له، ولم يُصَلُّوا ولا زَكَّوا؛ فلا إخلاصَ للخالِقِ بالتَّوحيدِ والصَّلاةِ، ولا نَفْعَ للخَلقِ بالزَّكاةِ وغيرِها).

قال ابن عثيمين: أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ، ولا شكَّ أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ؛ لأنَّك تَقْطَعُ العَلائقَ مع غيرِ اللهِ إلَّا فيما يُحِبُّ اللهُ تعالى. وذلك على قولٍ في تفسيرِ كلمةِ الزَّكاةَ.

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) أي: وهم مُنكِرونَ للآخرةِ، جاحِدونَ بها، فلا يُؤمِنونَ بالحياةِ الأُخرى بعدَ الموتِ. موسوعة التفسير

مَعنى لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أنَّهم لا يَفعَلونَ ما يَكونونَ به أزكياءَ، وهو الإيمانُ. وقيل: خُصَّ مِن بينِ أوصافِ المشركينَ منعُ الزكاةِ مقرونًا بالكفرِ بالآخرةِ؛ لِتَشويهِ كُفرِهم، وتَفظيعِ شِركِهم وكُفرانِهم بالبَعثِ، بأنَّهما يَدعُوانِهم إلى مَنعِ الزَّكاةِ، أيْ: إلى القَسوةِ على الفُقَراءِ الضُّعَفاءِ، وإلى الشُّحِّ بالمالِ، وكَفى بذلك تَشويهًا في حُكمِ الأخلاقِ وحُكمِ العُرفِ فيهم؛ لِأنَّهم يَتَعيَّرونَ باللُّؤمِ، ولكِنَّهم يَبذُلونَ المالَ في غَيرِ وَجهِه، ويَحرِمونَ منه مُستَحِقِّيه، وأيضًا لِأنَّ أحَبَّ شَيءٍ إلى الإنسانِ مالُه، وهو شَقيقُ رُوحِه، فإذا بَذَلَه في سَبيلِ اللهِ فذلكَ أقوى دَليلٍ على ثَباتِه واستِقامَتِه، وصِدقِ نِيَّتِه، ونُصوعِ طَوِيَّتِه، وهذا ما لم يَفعَلْه الكافِرونَ.الدرر السنية

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾﴿8﴾

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي: إنَّ الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لهم أجرٌ دائِمٌ، وثَوابٌ غيرُ مُنقَطِعٍ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: الإيمانَ وَحْدَه لا يكفي حتَّى يَقتَرِنَ بعَمَلٍ، لكنْ إذا أُطلِقَ الإيمانُ شَمِلَ العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معه العَمَلُ صار العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا، مِثلُ قَولِه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هنا جَمَعَ بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ، فيكونُ الإيمانُ في القلبِ، والعَمَلُ في الجَوارِحِ.

حَاجَتُنا إلى الإِيمَانِ وَالعمَلِ الصَّالِحِ أَشَدُّ مِنَ الهَوَاءِ وَالماءِ والطَّعَامِ فَتِلكَ قُوَامُ الجَسَدِ فَحسْبُ. والإِيمَانُ وَالعمَلُ الصَّالِحُ سَعَادَةُ القَلْبِ فِي الدُّنيا، وَنَجَاةُ الجَسَدِ وَالرُّوحِ فِي الآخِرَةِ.

والإِيمَانُ بِلا عَمَلٍ صَالِحٍ ادِّعَاءٌ بِلا بُرهَانٌ! فَكَمْ مِنْ أُناسٍ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ وأَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ! وَلَكِنْ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا! لأَنَّ عَمَلَهُم لَمْ يَتَّصِفِ بِالإِيمَانِ والصَّلاحِ، الذي هو سَبَبٌ لِسَعَادَةِ الْقَلْبِ وَفَرَحِهِ، وَذَهَابِ هَمِّهِ وَغَمِّهِ؛ وأَنَّ لَهُمُ الوُدُّ وَالمحَبَّةُ، وَبِهِ صَلَاحُ أَحْوَالِ الْعَبْدِ وَقَلْبِهِ وأَعْمَالِهِ وَتَيْسِيرُ أُمُورِهِ، وَأَنَّ اللهَ يَحْفَظُ أَهْلَهُ وَذُرِّيَّتَهُ بِهِ! وَأَنَّهُ ثَبَاتٌ فِي الشَّدَائِدِ، وَوَاقٍ عَنْ المحَرَّمَاتِ، وَأَنَّ لَهُم وِلايَةٌ خَاصَّةٌ!

يَكْفِي هَنَاءً لأهْلِ العَمَلِ الصَّالِحِ أنَّ لَهم ثَبَاتاً فِي قُبُورِهم! فَإذَا جَاءَهُ المَلَكُ فَسَألَهُ عَنْ رَبِّهِ وَنَبِيِّهِ وَدِينِهِ؟ فَإنْ كَانَ مِن أَهْلِ الصَّلاحِ! قَالَ: رَبِيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإسلامُ، وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ –صلى الله عليه وسلم–، فَيُقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلَى الْجَنَّةِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ إلَيْهِ فَيُقَالُ لَهُ: "اسْكُنْ وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

أَهلُ العَمَلِ الصَّالِحِ يُوَفَّونَ أُجُورَهُمْ كَامِلَةً، وَيَنْعَمُونَ بِأَمْنٍ لا كَدَرَ مَعَهُ، وَبِفَرَحٍ لا حُزْنَ يُخَالِطُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالى:(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [آل عمران: 57].

قالَ السَّعدِيُّ –رحِمَهُ اللهُ–: "وإنَّمَا تَوفِيَةُ الأُجُورِ بِأنْ يَجِدُوا مَا قَدَّمُوهُ مِن الخَيرَاتِ مُحضَرَا مَوْفُرَا فَيُعطِي كُلَّ عَامِلٍ أَجْرَ عَمَلِهِ وَيَزِيدُهُم مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ".

مِنْ هُنا نَعلَمُ أنَّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا ولو كَانَ قَلِيلا فإنَّهُ خَيرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَليها! قَالَ نَبِيُّنا –صلى الله عليه وسلم–: "لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ". وَقَالَ: "رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا" (رواهما مسلم).

وَمِن فَضْلِ اللهِ –تَعَالى– عَلى أَهْلِ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ أَنْ جَعَلَ أَعمَالَهُم مُكَفِّرةً لِسَيئَاتِهِم، فَيَنتَفِعُونَ مِنْ جَانِبَينِ: جَانِبِ تَكْفِيرِ السَّيئَاتِ، وَجَانِبِ اكتِسَابِ الحَسَنَاتِ، جَمَعَها اللهُ تَعَالى في قَولِهِ: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) [العنكبوت: 7].

بِل إنَّ المولى يُكَفِّرُ على أَسوَأِ مَا عَمِلَ العَبْدُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَ كَمَا في قَولِهِ: (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الزمر: 35].

وإنَّ مِنْ أَعْظَمِ جَزَاءِهم ذَهَابُ الخَوفِ والحَزَنِ عَنْهُم؛ (فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [الأعراف: 35].

وَهُمْ فِي رِيَاضِ الجَنَّةِ يَرْتَعُونَ، ومِنْ غُرَفِها يَتَبَوَّءُونَ: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) [الروم: 15]، لِذا فَإنَّهُم لا يَمَلُّونَ ولا يَطْلُبُونَ عمَّا هُمْ حِولاً ولا بَدَلا! (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) [الكهف: 108].

إذَا كَانَ مَا سَمِعْناهُ جُزْءٌ مِن الأَجْرِ الأُخرَوِيِّ والجَزَاءِ السَّرْمَدِيِّ فَحَرِيٌّ بِنا أَنْ نَجْتَهِد فِي التَّزَوُّدِ مِن الصَّالِحَاتِ، وأنْ يَكُونَ لَنا نَصِيبٌ مِنْ كُلِّ بَابِ خَيرٍ.